اخبر الخديوي قبل ذلك بايام قليلة عن ظلامات الضباط فقال له الخديوي بالفرنسوية Pourquoi les officiers restent-ils tranquilles? اي لماذا يبقى الضباط ملازمين السكينة وكأنه مثل هذه تكفي لاقناع الضباط انهم اذا قاموا فالخديوي معهم

في العزلة[1]

(١)

جاء في الامثال ان في الحركة بركة وليس فيكم على ما اظن من ينكر صحة هذا المثل او من لا يعمل به وانا هذا الفقير فانه لا يعتقد بصحته ولا يعمل بموجبه. وقد خطر لي منذ سنين ان اعكس الآية واجري على ضدها. فقلت ان كان في الحركة بركة ففي الفلوات بركات وفي القصور سعود وفي الهدو نمو وسمو واشياء اخرى من هذا الباب. ولا يخفى عليكم ان في هذه الامثال حكمة تختلف عن حكمة المثل السابق بل تختلف اختلافاً جوهرياً يحاكي اختلاف النفس عن الجسد. فالحكمة فيها روحانية معنوية وحكمة من يقول ان في الحركة بركة مادية عملية تجارية لذلك آثرت الاولى على الثانية فاوقفت عملي وخرجت من الوسط المضطرب لافكر قليلاً في ما انا فيه لارى اين انا من نفسي ومن الله. وحقاً انني تألمت لما وقفت متأملاً: تألمت لما رأيتني قريباً من الناس بعيداً عن نفسي وعن الهي. فتركت الحركة والبركة للعمال ولبني الاشغال وسلكت في نور الحكمة والحقيقة سلكاً جديداً. وهذه حالة لا بدّ منها لكل من تنبهت فيه الروح. هي طور من اطوار الفيلسوف الاولى اول ريشة في جناح الشاعر. اول حادثة خطيرة في حياة الاولياء والانبياء. اول عقدة روحية عقلية يعجز عن حلها اكثر المفكرين. وجدت نفسي في هذه الحالة متألماً متحيراً مترددا. تألمت كثيراً لما رأيتني في الغربة بين شعب لا يعرف معنى السكينة ولا الراحة ولا الجمال. وجدت نفسي في بلاد فيها الحركة دائمة متواصلة واما البركة فيقال فيها ما يقال في بعض الامراض انها حادة مشقطعة. وجدت نفسي بين قوم يأكلون ماشين ويقرأون آكلين ويعدون النقود راكضين ويعبدون الاوثان قائمين قاعدين. يقدمون ارواحهم ضحية لآلهة ما سمعت باسمائها العصور الغابرة. عشت زمناً بين قوم يقال انهم مسيحيون ولكنهم

(١) خطبة القيت في جمعية شمس البر ببيروت

في الحقيقة وثنيون . وثنيون بثروتهم وبطرهم . وثنيون باخلاقهم وشعورهم . وثنيون بمطامعهم واستثمارهم . وثنيون بتعصبهم . واما هياكل هذه الآلهة واصنامها فانك لا تشاهدها بباصرتك قائمة في الاسواق بل ينبغي ان تنظر اليها ببصيرتك فتراها في كل حي وجماد يتحرك . تعال معي لاريك آلهة هذا الزمان الجديدة . آلهة هذا التمدن الحديث . تعال معي لاريك من الميا كل والاصنام الوانًا واشكالاً فهذا صنم من القطن لاله البورص وذاك صنم من الفحم لاله المعادن . هذا صنم من السكر لاله الحقول وذاك صنم من الخشب لاله الغابات . وهنا هيكل من النوس والرخام لاله التجارة وهناك الهيكل الاكبر المشيد بين تجارة الذهب والفضة لاله الآلهة اله الامة اله المال . والناس هنالك يعبدون اموالهم راكضين من هيكل الى آخر ومن اله الى اخيه . يعبدون هذه الآلهة الغريبة قائمين . قاعدين . يعبدونها ويخدمونها ويموتون في سبيلها . يعبدونها في كل حالاتهم . يخدمونها في حركاتهم وفي سكناتهم . فخرجت من بين هؤلاء المشركين طالبًا في البرية ربي مثل ابرهيم . خرجت من بينهم وانا على اعتقاد ان المرء ان قرب من العالم الجديد ابعد عن الطبيعة وعن الشعر وعن الجمال الروحي وعن الله . ولذلك حوّلت وجهي الى مشرق الشمس وعدت في طريقي الى ارض الانبياء . عدت الى وطني لاقترب من جمال الشرق الشعري وجماله الطبيعي وجماله الروحي بل الالهي اي الجمال الدائم الابدي الذي لا تشينهُ الحالة السياسية المختلة ولا الحالة الاجتماعيَّة المعتلة

عدت الى مسقط رأسي باحثًا عما اضعتهُ هناك ايام الصبا . افلتُّ من اشراك التمدن والحمد لله وفررت هاربًا الى الضريكة . على كتف الوادي وبالقرب من كروم اجدادي نصبت خيامي . فوق نهر الكلب وتلة جبل صنين رفعت رايتي البيضاء عوضًا عن العلم الاحمر الذي وضعتهُ في يدي احدى بنات الحرية في البلاد الاميركية . رفعت علم السلم فوق فلسفتي الاجتماعية بعد ان كان علي علم القتال وكتبت على بابي — في اصلاح الفرد اصلاح الامة وفي تهذيب الشعب اصلاح الرؤساء والحكام . نعم سادتي ان التهذيب خير من التخريب . على ان ذلك ليس من موضوعي هذه الليلة فالمجال ضيق لمثل هذا البحث واضيق منهُ منبر هذه الجمعية

عدت الى وطني طالبًا فيهِ راحة العقل وراحة النفس وراحة الجسد . بل طالبًا فيهِ شيئًا اشرف من كل ذلك واسمى — طالبًا في الطبيعة ومنها ما ينمي المرء عقلاً ونفسًا وجسدًا . عدت يا سادتي لا كما عاد قيصر الى رومية او هوجو الى باريس . عدت قانعًا

شاكرًا راضيًا وتذكرت السندباد لما عاد من سفراته وابا العلاء لما عاد الى معرته . فشكرت الله كالسندباد على سلامتي في الغربة . ورجعت كابي العلاء الى العزلة في قريتي هربًا من الحضارة وتناهيها . وشغفًا بالطبيعة وجمالها . وحبًّا بالتأمل ولذاته . وتقربًا من الله وبركاته . فدخلت هذه المدينة كما يدخل انكاش الهيكل او اللص البيت . دخلتها من باب السر لم يدرِ بي من الاخوان احد . وصعدت الى الجبل ولم يدرِ بي احد . واقمت هناك زمنًا في ظلال الصنوبر ولم يدرِ بي احد . فاضطجعت على العشب ورأسي في ظل وزالة زاهرة — انا للطبيعة وانا اليها راجعون — وشكرت الله شكرًا جزيلاً ووددت لو كان بيني وبين المدن اضعاف ما بيني وبينها من الوهاد والجبال والبحار

واظنني اخطأت مرةً فردّدت بصوتٍ عالٍ صدى صوت نفسي . وما علمت ان للاشجار عيونًا وللصخور آذانًا . بل ما علمت ان النهر يحمل الى المدينة صدى صوت الوادي وصدى ارواح ساكنيه . في صباح يوم من فصل الشتاء سمعت حديثًا دار بين شجرة كبيرة من الصنوبر واخرى صغيرة او بين ام الذاب واحدى بناتها . قالت الابنة ممن هذا الغريب الذي لا يخاف السكنى معنا في هذا الشتاء فاجابت الام . ما هو بغريب يا بنيتي وانما هو من نبات هذه الارض ومن سنديان هذه الجبال . هو من ابنائنا يا بنيّة . وقد طالما حملتهُ وحملتهُ من ثماري لما كان صغيرًا . فقد طالما فرشت لهُ من ريشي وظلي ما يزيل تعب الجسد وهم الفؤاد وبعثت اليهِ من ارج نسيمي ما ينعش النفس ويحييها ومع ذلك فقد هجرنا زمنًا طويلاً وعاد اليوم ليكفّر عن ذنوبهِ امامنا وفي ظلنا . حبيهِ يا بنتي فانهُ يحبنا

وبمثل هذا كانت الاشجار تفشي اسراري الى النهر والنهر يحملها الى البحر والبحر يلقيها بلا اكتراث على شواطئ هذه المدينة . وقيل ان الصيادين سمعوا ذات يوم في هدير الامواج اصواتًا غريبة مطربة فظنوا ان احدًا من الجن يكلمهم بلساننا العربي الشريف . وقيل انهم فهموا من الغاز الامواج شيئًا يسيرًا واشاعوا في البلد اشاعات تحوّلت بعد ايام خرافات وخزعبلات تشير كلها الى ان في وادي الفريكة ناسكًا تسجد لهُ الصخور وتخاطبهُ الاشجار وتكلمهُ السواقي وتستشيرهُ الطيور . فاستغربت الخبر كما استغربهُ الناس وبعد ان فشت في الوادي عن الناسك واعياني التفتيش كتبت الى احد الاصدقاء كتابًا هزأت فيهِ من هذه الخرافات التي قصّها البحر على الصيادين واذاعها الصيادون في المدينة فزاد الكتاب الطين بلة لان الادباء الذين سخروا مثلي بهذه الخرافات اعتقدوا بعد نشر سخريتها وطفقوا يشعرونها في اندية الادب فتجسمت الاشاعة حتى استحالت خرافة واصبحت في اعتقاد الناس حقيقة راهنة . فاهتمّ

بعض اعضاء هذه الجمعية بالامر وكتب احدهم اليَّ لاصدقهُ الخبر ثم جاءني من الجمعية نفسها كتاب تسألني به ان امتحنها بشيء من اختبار الناسك واسفاره . وبعبارة اوضح دعتني الى الخطابة في حفلتها السنوية منذ سنتين فلبَّيت الدعوة وبعثت الى الجمعية بشيء من ثمار نفس الناسك المذكور ولبثت انتظر جوابها وبينما انا اتوقع منها كتاب شكر جاءني الرسول بعد اسبوع ومعهُ الثمار التي بعثتها ثماري اعيدت اليَّ . ردَّت الجمعية هديتي بلا عذر ولا شبه عذر ارجعت الثمار واغفلت الاعتذار وبعثت مع الرسول تقول قد فحص الطبيب ثمارك فوجدها مضرة بصحة هذه الامة . وجد فيها مكروبات عديدة غريبة خبيثة . فكانت هذا منها اهانة فوق اهانة لكنني قبلتها شاكرًا وحسبتها من جملة ما ينبغي ان يعرض عنهُ المرء في عزلته حسبتها مما ينبغي ان تتركه وراءنا اذا حوَّلنا وجهنا نحو شمس النفس الشارقة من وراء جبال الحقيقة المرسلة ما فاض من نورها فوق مروج الشعر وبحيرات الخيال . فظلَّ الناسك والخال هذه هانئًا في واديهِ ولم يدرِ ان الجمعية لم تزل تناديهِ . على انهُ لم يكد يرفع طرفهُ الى سماء الروح ويطمئن بيدو ما تجسم امامهُ من السعادة الروحية الحقيقيَّة حتى جاءه هذا الشقاء وفيهِ ما هو مقضي عليهِ من الشدة والبلاء . فهجر صومعتهُ في الجبل مضطرًّا واستعاض من شذا الاودية بروائح الادوية وعن الاوابد بالاطباء . مع ان الفرق بين الاولياء والاطباء قليل لا يستحق الذكر . فكم من طبيب فاضل يستحق ان يطوَّب قديسًا او يدعى وليًّا بعد موته فقد تعرفت بفضل آلامي العصبيَّة بعدد وافر من هؤلاء النطس وبان لي بالاختبار ما كنت اجهلهُ . تحققت ان الفرق بين الطبيب والكاهن كالفرق بين الكاهن والمحامي . كلهم نفعنا الله بعلمهم وبرِّهم يتعاطون الجريمة . كلهم يتاجرون بشيء من الحقيقة وبكثير من الخزعبلات والاوهام . على ان الطبيب ارفع درجة من الكاهن والكاهن ارفع درجة من المحامي . والثلاثة يا سادتي من سلالة واحدة ومن بطن واحد . ثلاثة عنقان من بيضة واحدة . ومن الشرور ما كان لازمًا لبشر . ومن الشرور ما هو نافع للانسان . وقد كنت اسيرًا لشيء منها في هذه المدينة

لما جاءني رئيس هذه الجمعية يسعى بلطفهِ وجميل ادبهِ وكتبي مرَّة اخرى في امر الخطابة الحَّ عليَّ الرئيس وعدد من الادباء باسلوب جعلني اظن ان الجمعية تنوي ان تحاصرني في القريكة وتعقد جلستها هناك اذا كنت لا اتكلم في حفلتها هنا . فخفت من المضايقة في عزلتي ونتيجة خوفي ايها الكرام وقوفي امامكم الآن خطيبًا . عفوًا سادتي ما جئتكم خطيبًا هذه الليلة بل محدثًا وسأحدثكم في موضوع العزلة ومنافعها ومضارها

٣

العزلة اما داء واما دواء واما غذاء . في داء لمن لا يجد في نفسه ما يغنيه عن معاشرة الناس ولو زمناً قصيراً . وهي دواء لمن سئمت نفسهُ من ملاذ هذا المجتمع ومرتقاته من سرورهِ وشرورهِ فيعود الى امهِ الطبيعة لتداويهُ بنور شمسها وعليل هوائها وشذا رياحينها . وهي غذاء لمن يخرج من الهيئة الاجتماعية والنفس نافرة من محيط هي غريبة فيهِ . يعتزل الانسان طالباً في الطبيعة الراحة التي لا يعرفها الناس . واللذات التي لا يشعر بها الناس . والتعزية التي قلما تعزي عامة الناس . نفس الاول خامدة جامدة . ونفس الثاني سقيمة عقيمة . ونفس الثالث من الانفس السامية الكبيرة التي قلما تنام . فهي تنبثق من هجعتها قبل صياح الديك فتفتح عينيها في ظلمة الليل الحالكة وتناجي قبل بزوغ الفجر من العذاب والحيرة اشدها . تبتدئ هذه النفس بالمقاومة والتمرد فتناوم القوات التي تعترضها في طريقها وتتمرد على كل من يحاول ابقاءها في الظلمات الدامسة . تسير بنور مصباحها الداخلي الى ان تخرج من الظلمات بفضل ما فيها من الشجاعة والاقدام والثبات فتتدرج من الظلمة متمردة الى العزلة هادئة وتعاني فيها بادئ بدء نوعاً جديداً من العذاب . تعاني هناك عذاباً هو اساس كل آلامها الروحية . العذاب الذي يقاسيهِ من تعودت اعصابهُ المخدرات والمسكنات اذ ينقطع عنها تماماً . ومن العزلة تعود هذه النفس المحررة المستنيرة المتجردة الى المجتمع لتتم فيهِ ارادتها لتنير ولو زاوية صغيرة فيه بما فاض من نورها

شبهت الانقطاع عن الناس بالانقطاع دفعة واحدة عن المسكنات التي يعتادها المريض . فهل خطر لاحد منكم ان يستشير ربهُ بواسطة الطبيعة في امر روحهِ المريضة كما يستشير الطبيب في امر جسدهِ . ايدهشكم قولي لكم اننا كلنا مرضى بوجهٍ ما . وفي هذا المجتمع كما هو اليوم بالاخص بما فيهِ من دواعي الامراض والهموم والاحزان تسيدا الحركة الدائمة آلاما . ولا اذكر الآن اي علماء الالمان قسم الناس ثلاثة اقسام فقال — قسم منهم يولد للمستشفى وقسم للمارستان والقسم الثالث للبادية . اي ان ذلك العالم الالماني يقول ان الناس اما مرضى واما مجانين واما بوابة . ومع ما في هذا القول من الغلو والضلال والكفر — فقد كفر العالم بالنفس واساء فهم نواميس الطبيعة وغالى في تقبيح الانسان — مع ما في قولهِ مما ذكرت فهو لا يخلو من الحقيقة . غير انها حقيقة ناقصة متجزئة . واما الحقيقة كلها الحقيقة الشاملة الابدية هي ان الناس كلهم سواء من وجهة الفيلسوف . ومن هذه الوجهة

ايضاً يمكننا ان نقسم البشر الى قسمين اوليين . قسم الاحياء روحياً وقسم الاموات وطائفة الطبقتان نشاهدهما في كل شعب حضرياً كان او بدوياً . في البداوة الناس لتنبه فيهم الروح وتنهض من سباتها كما في الحضارة . بل في البدو تبلغ الروح المتفردة الكبيرة اعلى درجة من السمو والقوة والجمال . فيخرج من البادية رجال كما يظهر في المدن رجال . فان نبغ في نيويرك المخترعون وفي لندرا العلماء وفي برلين الفلاسفة وفي باريس الشعراء وفي فلورنسة المصورون والخاتون في البادية ينشأ الانبياء . لكل بلاد مزية طبيعية ثابتة دائمة . وفي كل نفس بشرية شيء من سماء البلاد التي نشأت فيها ومن ارضها . فيها شيء من تبر وطنها ومن تراب من خير حوائها ومن شرها . من نورها ومن نشاطها . من هدوئها ومن هياجها . فالناس اذاً كلهم سواء من وجهة الفيلسوف . الانسان واحد من بلاد الزولو الى شطوط الدروج ومن تلوج ألسكا الى اطراف اليابان . الناس كلهم سواء من حيث ان الامراض والجنون والتوحش كلها تنتاب كلاً منا في اوقات مختلفة وبدرجات متفاوتة . ولا يفوتنا ان نذكر مع هذه الضربات كلها نعمة واحدة شاملة . فاننا ممن لا ييأسون ولا يقطعون الرجاء مهما توغل الانسان في الجهل والجنون والتوحش لانني على يقين ان النفس في كل منا تفيق ولو مرة واحدة من سباتها في سياحتنا هذه العالمية . تنهض النفس من غفلتها فتحيا ولو بعمل واحد شريف خالص لوجه الله . تربأ من الشهامة والمعروف والاحسان ما يزيل عن وجه الحياة شيئاً من تقطيبه وعبوسته . تنهض النفس من ظلماتها من تحت اثقالها المادية من بين اغلالها الاجتماعية من تحت اهوائها وشهواتها واغراضها الذميمة لتقول للناس : — انني لم ازل حية واعرف معنى الحب والتساهل والحنان . انني لم ازل حية واعرف معنى الحق والعدل والحرية . فيمكنني ان اسامي الى ما فوق الشرف المتعارف بين الناس . الى ما فوق الفضيلة المصطلح عليها . الى ما فوق عدل القانون والشريعة . الى ما فوق قداسة الاديان وخزعبلات بدعها اني لا بد لكل امرىء من ساعة ولو في حياته كلها يظهر فيها بمظهر الفضيلة الصادقة الفضيلة المجردة السامية الحقيقية . فيخضع للنفس الامارة بالخير لا بالسوء لتظهر فيه محاسنها الجليلة . ولذلك ينبغي ان نقول ان الامراض والجنون والتوحش وحسنات النفس او يقظاتها تنتاب كلاً منا على الاطلاق تنتاب كلاً منا في اوقات مختلفة كما قلت وبدرجات متفاوتة . ومن هذه الوجهة المرتفعة وجهة الفيلسوف العمومية كنا لا شك متساوين اي اننا كنا مرضى بنوع ما وكلنا نحمل الاثقال نلهو بها . نسكن بها آلامنا . نخدر بها همومنا . نضمد بها جروح صبرنا ورجائنا . نعش بها آمالنا . وعند ما

يقف الواحد منا ليستنفس قليلاً ليتنشق نسيم السحر او الشفق او بالحري ليشرع عملهُ منبهة ويستريح تعاوده آلامهُ مضاعفة كما تعاود الاوجاع المريض عند انتهاء فعل المرقين وما هي هذه الآلام يا سادتي أروحانية هي ام جسمانية . فالطبيب يقول لنا انها جسمانية والكاهن يقول انها روحانية . والحقيقة في هذه المرة اقرب الى جانب الكاهن منها الى جانب الطبيب . آلامنا روحية اكثر منها جسدية . يعود الرجل من اشغالهِ في المساء او من ملاهيهِ بعد نصف الليل فيطرح نفسهُ على السرير متكرهًا متأففًا متذمرًا يطرح نفسهُ على السرير منهوك القوى شاكيًا من الم في اعصابهِ او في معدتهِ او في رأسهِ . ويظن ان اوجاعهُ موضعية يظنها جسدية والحقيقة على ما ارى هي خلاف ذلك . فالجسد لا يمرض من العمل واعضاؤهُ تزداد قوة ومرونة ونشاطًا بالممارسة والتمرين وهذا ناموس طبيعي . من اين اذًا آلامنا واوجاعنا . ما هي اسبابها اين مصدرها . ايمكن ان يكون لها سبب غير مادي . ايمكن ان تكون آلامنا الجسدية ناتجة عن ألم اصلي اسامي جوهري روحي ؟ سؤال أجيبكم عنهُ حالاً بلا تردد وبالايجاب . نعم سادتي وسيداتي ان مصدر هذه الآلام الروح . فالروح منا تئن وتأوه وصدى انينها يظهر في كل جوارحنا وفي كل حواسنا . الروح تألم من الضغط عليها . من احتقار الانسان اياها من إهمالهِ شؤونها . من اغتصابهِ حقوقها . الروح تأوه من قيود السلطة كما انها تألم من قيود العبودية . فالرئيس والمرؤوس سواء من هذا القبيل الظالم والمظلوم يشكيان من مرض واحد فالروح في كلٍّ منهما تتألم من حيوانية الانسان من اهوائهِ من استكبارهِ من بغضهِ من توحشهِ من ذلهِ من جهلهِ من جنونهِ . فاذا كانت الاشغال تسكن آلام النفس فالعزلة تضعف شوكتها ويتأصلها العود الى الطبيعة

وربَّ قائل يقول أتريد ان يكون الناس كلهم نساكًا وحبَّاء وكيف يتسنَّى ذلك . فالجواب ان ذلك غير ممكن وغير مطلوب . فالعزلة انواع . وربما امتهنت حرمة الناموس وتوسعت قليلاً بمعناها المحدود . فقد تكون شوقًا في النفس لسبر غور النفس لادراك كنه ذواتها لكشف الحجاب عن بعض اسرارها وهذه هي عزلة الفيلسوف . او قد تكون اعتصام النفس بعالمي الخيال والجمال فرارًا من مسؤولية الحياة الاجتماعية وواجباتها الضاغية . وهذه هي عزلة الشاعر وهي ممكنة في المدينة وبين الجموع كما في الصحراء او في الجبال لان الشاعر وان خالط الناس وحدثهم فهو دائمًا فوقهم وبعيد منهم . ثم قد تكون العزلة طلبًا في النفس لتتيح لها ان تملك عالم النفس لرفع اعلام الحقيقة والحب والحق فوق صروحها وهذه عزلة

الانبياء . وهناك انواع اخرى من العزلة لا يهمنا ذكرها لانها تغيرت عما كانت عليه حين قال المتنبي بيتهُ المشهور في وصف الاسد

في وحدة الرهبان لا انهُ لا يعرف التحريم والتحليلا

قد اتضح لكم ان الميل الى الوحدة والاعتزال ينشأ في النفس ومنها . فمتى النفس تتطلب المعرفة فهي تبتغي شيئاً من العزلة لتتغذى اثناءها من المعرفة . يقول الافرنج في السياحة تكملة التهذيب . اي ان المرء مهما درس وطالع وتعمق في العلوم وتطفل فيها تتهذبهُ يظل ناقصاً اذا كان لا يعرف من العالم الا مسقط رأسهِ او عاصمة بلادهِ . فاذا كان في السياحة تتمة التهذيب ففي العزلة تتمة السياحة . لان المرء لا يكون قد سلح قط اذا كان لم يعتزل قليلاً بعد سياحتهِ في العالم ليحاسب نفسهُ ليفحص بتأنٍ وهدوء ما فيها مخادعها ليغربل ما فيها من الحقائق والخرافات والآراء السديدة المختلطة مع الخزعبلات . وتكملة ليستقي النفس من ماء الفكرة الذي يتقطر ويتكرر في العزلة . ولا تظنوا ان كل من التجأ من المفكرين الى هذه الطريقة انتفع بها والذي لا ينتفع منها لا يستطيع نفع الناس

لما كنت في نويورك قصدت يوماً مدينة كنكرد بالقرب من بُسطن (وهي المدينة الصغيرة التي اعطت العالم الجديد اكبر شعرائهِ وفلاسفتهِ) لازور فيها بيت الفيلسوف المرحوم والحرج الذي بنى فيهِ الشاعر طورو بيتهُ او بالحري كوخهُ للعزلة فعاش فيهِ متنسكاً سنتين وألف هناك كتابهُ النفيس في فلسفة العمران وفلسفة الانفراد . والكاتب الذي كان رفيقي ودليلي في هذه الحجة — وهو شيخ جليل في الصحافة وفي السن — كان رفيقاً وصديقاً ايضاً لاكثر شعراء الكنكرد وفلاسفتها الغابرين فسألتهُ عما اذا كان في المدينة اليوم من يعدهُ من طبقة هؤلاء الرجال العظام فقال ان الطبيعة يا صديقي لا تجود علينا بالنوابغ كل سنة فهي لا تعطي العالم الا افراداً قلائل كل جيل وما كل من اعتصم بالعزلة يصل الى ذروة التفرد والذكاء فمنذ سنين جاء هذه الاصقاع شاب انكليزي واختار بيت طورو هذا مقراً لعزلتهِ وعاش فيهِ كما عاش طورو سنتين ولكنهُ يئس بعد ذلك وهجر كنكرد ومن ذلك الحين لم نسمع عنهُ شيئاً

فعزلة طورو اذاً او عزلة النابغة اثمرت من الادب والشعر والفلسفة ما يعد من طبقة ما كتبهُ اكبر نوابغ العالم وعزلة الثاني العقيمة اضرَّت بصاحبها لانهُ لم يدارك الخطر قبل حلولهِ فكان يجب ان يعرف في الشهر الثاني من اعتزالهِ ان الوحدة الطويلة الامد ما خُلقت لمثلهِ وان نفسهُ لا تتطلب مثل هذا الغذاء ولذلك لا اعمم في قولي ولا اغالي بمحاسن

العزلة ومنافعها اذ ما كل من اعتزل تفرّد ولا كل من تفرّد افاد الانسانية . على ان العزلة تنفع الكل اذا اخذ كل منها بقدر ما تقتضيهِ نفسهُ او بالحري اذا عرف كل انسان كمية الجرعة التي ينبغي ان يأخذها . فمن نفس متجمدة لا تطيق العزلة اكثر من اسبوع الى نفس متوقدة لا ترضى باقل من سنة او اكثر وبينهما تتفاوت المدد كما تتفاوت العقول . هذه هي القاعدة . فمن جرّب العزلة بحكمة واعتدال انتفع لا شك منها فهو يتنفع عقليًّا وجسديًّا وروحيًّا اذا احسن استعمال الدواء

وافضل ما في العزلة للمفكرين انها تقرب الفرد من نفسهِ . فالحياة الاجتماعية كما اتضح لكم مما ذكرتهُ تبعدنا عن انفسنا حتى تجهلها جهلاً فاضحًا . لان معرفة المرء نفسهُ غير ممكنة في اي حال من احوال هذا المجتمع المضطرب . وان جهل المرء نفسهُ يُعدّ عنها بعدًا شاسعًا . وان حاول خدمة الانسانية وهو بعيد عن نفسهِ اي جاهلها لا يستطيع الى ذلك سبيلاً قويمًا تامًا مهما اجاد ببيانهِ وفصاحتهِ . مهما بالغ في آرائهِ واكبر الناس دعواهُ . مهما صاح ونادى ودعى القوم وادّعى . وان صياح المصلحين ليذكرني دائمًا بهذوء الفلاسفة بل يذكرني بما جاء في التلمود من حديث دار بين اشجار الغاب واشجار البستان . قالت اشجار الغاب لأشجار البستان . لماذا لا نسمع لاغصانك صوتًا ولا صدًى فاجابت اشجار البستان لاني مشتغلة عن الولولة بانماء ثماري . ثم سألت اشجار البستان اشجار الغاب قائلة . ولماذا نسمع لاغصانك هذا الدوي وهذه الجلبة فاجابت اشجار الغاب . لكي يشعر الناس بوجودي

لذلك قلت ان كان في الحركة بركة ففي الخلوات بركات وفي الجدو نمو ونمو . فالنور يا سادتي ينبثق على العالم هادئًا ساكنًا . وان شمس الحكمة لتحتجب غالبًا عند هبوب العواصف والزوابع . فمن الانفس السامية المنفردة الهادئة ينبثق نور الحب ونور الحكمة ونور الحقيقة . وفي الانفس السامية المنفردة الهادئة ينابيع الجمال كلها جمال الفنون وجمال الروح وجمال الحياة السعيدة . والى الانفس السامية المنفردة الهادئة تعود بنا حسنات التمدن الحديث لترينا فيها اسبابها . لذلك كتبت فوق بابي

"في اصلاح الفرد إصلاح الامة وفي تهذيب الشعب اصلاح الرؤساء والحكّام"

امين ريحاني